

المقاربة التفكيكية وخطاب الاختلاف في الفكر ما بعد الحدائي - إستراتيجية تفكيك هيمنة النسق ومركزيته وفق رؤية جاك دريدا -

The deconstructive approach and the discourse of difference in postmodern thought - the strategy of dismantling the hegemony and centrality of the system according to Jacques Derrida's vision -

جامعة باتنة 1/ الجزائر	فلسفة	سماح حبطة Habta Samah Safa.louji2014@gmail.com
DOI: 10.46315/1714-012-002-004		

الإرسال: 2022/10/14 القبول: 2023/04/03 النشر: 2023/06/16

ملخص:

نبغي من خلال هذه المقاربة البحثية التماس ما استفز فكر دريدا والمتعلق أساسا بتلك المركزية التي بسطت نفوذها وسلطانها على الفكر الغربي في بعده الميتافيزيقي خاصة ما تعلق بمركزية الكلام ميتافيزيقيًا تُقَرّ بمنطق الثنائيات التي طغى فيها طرف على حساب طرف مغاير تم تغييبه بشكل تعسفي، الأمر الذي استدعى إعادة استحضارها واستنطاق ما صُمت عنه في تاريخ الفكر الميتافيزيقي ومساءلتها في أفق التفكيك الذي ارتآه كإستراتيجية ملتوية لغرض خلخلة لبنة النسق واستدعائه من متن عالم اللسانيات السويسري دي سوسير لغرض إحداث تصدعات داخل بنية النص يحول دون أن يمارس مناعته، واكتشاف مواطن القصور القائمة فيه والمحدودية التي أحاطته.

كلمات مفتاحية: التفكيك، الاختلاف، البنية، مركزية الصوت

Abstract: We attend through this research approach, we seek what sparked Jacques Derrida's thought and related to those centralities that accompanied Western thought in its metaphysical dimension, and especially what is related to PHONOCENTRISM - under discussion - a metaphysics that acknowledges the logic of the dualities in which one side predominates at the expense of a different party Its absence was arbitrary, which necessitated its re-examination and interrogation of what it was silent about in the history of metaphysical thought and questioning it in the horizon of deconstruction, which he saw as a twisted strategy for the purpose of loosening a system block and summoning it from the text of the Swiss linguist de Saussure - exclusively - for the purpose of creating cracks within the text structure that prevents To exercise his immunity, and discover his shortcomings and the limitations .

Keywords : Déconstruction; Différance; Structure; Phonocentrism.

*- مقدمة:

إن الاضطلاع بمهّمة تقصي دينامية الفكر الغربي المعاصر عند المنشغلين والمشتغلين به تحديداً، ضمن تياره ما بعد الحدائي ستكشف عن فكر نصّب نفسه لمناهضة تلك الرؤى التي

لازمت الفكر الإنساني في مجمله وبخاصة حول ما يمكن وسمه بخطاب الهويّة والانكفاء على الذات، ولم ينحصر هذا الأمر في هذا الجانب فحسب، بل تعداه إلى تتبع بُعد مغاير مرتكز أساسا حول ما تعلق بالخطاب اللغوي خطاب الكلام والقول باعتباره نسق يندرج ضمن العلامة اللسانية عند عالم اللسانيات دي سوسير_تحديدا_ في سياقه البنيوي، فإذا كان القرن التاسع عشر هو قرن اللسانيات بلا منازع، فالدرس اللساني عند سوسير يمثل البعد الذي يتم فيه إقصاء الجانب الذاتي في مجال اللغة، والنظر إليه كونه يشكل نسقا ونظاما مجردا من العلامات، الأمر الذي استرعى اهتمام جاك دريدا لغرض استدعاء هذا الإرث المرتبط بمركزية الصوت أو الكلام والعمل على مساءلتها تفكيكيا لغرض اكتشاف مواطن القصور القائمة فيها، والمحدودية التي اكتنفتها، وفقا لمنطق خطاب الاختلاف والمغايرة، فلم يكن التفكير في مساءلة دريدا التفكيكية للمركزيات التي أقامها العقل الغربي الميتافيزيقي سواء ما تعلق به مركزية اللوغوس LOGOCENTRISM، ومركزية الفالوس PHALLOGOCENTRISM أو ما تعلق بمركزية الصوت أو الكلام PHONOCENTRISM - قيد التناول- إشكالا عرضيا، وإنما مسعاها هو تفكيك ميتافيزيقا تُقَرّ بمنطق الثنائيات التي طغى فيها طرف على حساب طرف مغاير، الأمر الذي استدعى إعادة استحضارها واستنطاق ما صُمت عنه في تاريخ الفكر الميتافيزيقي وعليه: كيف تعاطى دريدا تفكيكيا مع سؤال النسق الذي هيمن بشكل مضمّر في لسانيات القرن العشرين؟ وعلى أي أساس ارتكزت مساءلته له؟ وهل هذه المساءلة أوجدت لها بديلا يُستعاض بها عنها بما يتماشى ومنطق الاختلاف في الخطاب ما بعد الحداثي في بعده التفكيكي؟

أولا_ مقاربة مفاهيمية: التفكيك، الاختلاف:

يستوجب منا ضرورة تناول هذه المفردات كما وردت في القواميس والمعاجم سواء على المستوى اللساني أو في معناها الاصطلاحي، نستل منها ما يتماشى وهذه المقاربة التحليلية لغرض إبراز استشكالها الفلسفي بغية بسط هذه المفاهيم أمام المتلقي للوقوف عندها بوجه عام وعند دريدا تحديدا (التفكيك والاختلاف بخاصة)، وما أثاره بخصوصهما قصد موضعتة في إطار محددات الدراسة المنجزة بشأنه، فلا يمكننا تناول مفردة الاختلاف عنده بمعزل عن التفكيك.

1 مفهوم التفكيك:

حيث نسعى من خلالها تبين معنى مفردة التفكيك إيثمولوجيا، وعند دريدا على وجه الخصوص ضمن مجالي النقد الأدبي والفلسفة، خاصة وأن هذه المفردة شكلت توجهه الفلسفي والأدبي تحديدا، ففي اعتراف منه في رسالة أرسلها لصديقه الياباني توشي هيكو إزوتسو Toshihico Izutsu (1993/1914) عالم إسلاميات ياباني أن التفكيك (Déconstruction) مفردة عصية على

التحديد والتعريف والضبط على اعتبار أن كل تعريف وتحديد في نظره يحتاج إلى تفكيك، بل استحضار معه أيضا سؤال الترجمة بخصوصها فهي: "ليست أداة تحليلية، ولا هي أداة نقدية، ولا هي منهج، ولا عملية ولا هي فعل يُنجز على النص بواسطة الذات، بل هي، بالأحرى أو على الأصح مصطلح يقاوم أي تعريف وأي ترجمة" (دريدا، ج، 2013، صفحة 17). مفردة فرضت نفسها عليه عنوة، تنضوي على دلالات متميزة من حيث الترجمة من جهة، والتعريف الذي يتقاطع مع فكرة التفكيك ذاتها التي تروم خلخلة أي تعريف وأي تحديد له، فالتفكيك بحسبه كما ورد في كتابه الكتابة والاختلاف يطال كل ما يعترض طريقه، هذا الأمر أفضى إلى النباش عن ما إذا كانت ذات أصول فرنسية، والتي طرأت عليه بصفة شديدة العفوية، على حد قوله وباعتراف منه عثر عليها في قاموس إيميل «Lettre» الفرنسي وهذا ما ورد فيه بما تعلق بمفردة التفكيك "فعل التفكيك والفك. تفكيك مبنى. تفكيك الأسطورة. "أبدأ... لقد تمت محاولة تفكيك الشخصية، في شخصيتها المستفيدة من التعبير الشعري، في الرواية بجرأة شديدة" (BLUM, 2007, p. 485) فالتفكيك ضمن هذا الحيز القاموسي العتيق يحيل إلى المعنى القريب الذي يقرب ما يود دريدا إيصاله من معنى محدد بخصوصه، حتى وإن كانت ذات منحنى نحوي يحدد معناه المعماري في حالة تشتت أجزائه بعضها عن بعض وهذا ما أوضحه دريدا بخصوص هذه اللفظة بقوله "... وكانت مؤدياتها النحوية واللغوية والبلاغية مربوطة فيه بأداء مكائني وبدا لي هذا الالتقاء مفرحا وشديد التلاؤم مع ما كنت أريد على الأقل أن ألمح إليه" (دريدا، ج، 2000، صفحة 58). حتى أن استعمالها -بحسبه- كان نادرا ومجهولا في فرنسا على الأغلب، بعكس ما كانت عليه البنيوية في أوج عطاءها باعتبارها موضوعة العصر آنذاك في فرنسا منتصف ستينيات القرن الماضي، إلا أنها أعلنت عن أفولها لتفسح المجال لظهور ما يسمى بما بعد البنيوية Post-Structuralisme التي يمكن القول أنها تخلقت من رحم البنيوية ذاتها إلا أنها انعطفت عن مسارها فهو تعبير عن إعادة مراجعة ما بعد البنيوية للبنيوية من داخلها الأمر الذي أدى إلى إجراء عملية تصحيح ذاتي اتخذ له منحنى مغايرا تماما عن سابقه، وقام كحركة فكرية على أنقاضها. غير أن هذا التقويم الذاتي للبنيوية من لدن التفكيكية كتوجه نقدي لها لم يبرح تخوم -كاستثناء- هذا التوجه النقدي إلا أنها من زاوية مغايرة ليست الحداثة، بل ما بعدها، ولا البنيوية وإنما ما بعدها وضدها، فالتفكيك إذن "حركة" ضد-بنيوية" (... وبأية حال، ورغم المظاهر، ليست تحليلا Analyse ولا نقد Critique (...))، ليس التفكيك منهجا ولا يمكن تحويله إلى منهج (... ليس حتى فعلا أو عملية (...)) إنه **حدث** لا ينتظر تشاورا أو وعيا أو تنظيما من لدن الذات الفاعلة ولا حتى من لدن الحداثة" (دريدا، ج، 2000، الصفحات 61-60). مفردة أراد لها دريدا توضيحا فزادها تعقيدا وصعوبة حالت دون فهمها وترجمتها بشكل

مباشر وجلي ، وهذا ما يرومه التفكيك في كنهه، فهو بحسبه تجربة ممكن الممكن- المستحيل، وقدره أن يتخذ له ألسنا متعددة، ولا ينصب على تفكيك واحد، تناسل منه تفكيكات عدة.

2 مفهوم الاختلاف:

أما بخصوص مفردة الاختلاف عند جاك دريدا فاتخذت لها دربين متميزين عما أُدرج بخصوصها معنىً ونحتاً (على مستوى الكتابة) في كتابه هومش بقوله: " أود القول بداية أن الاختلاف ليس كلمة ولا مفهوما، يبدو لي استراتيجيا الأكثر نقاء للفكر(...) استراتيجية في نهاية المطاف دون أي نهاية يمكن أن نسميه تكتيكا أعمى(...)"(DERRIDA, J, 1972, pp. 7-8)

استراتيجية كما يحلو لدريدا نعتها بها مفردة تعني الإزاحة ذات الميزة التاريخية باعتبار أن الاختلاف هو الإرجاء أو التأجيل، أي أرجأ وأجل، وأعاد مرة أخرى بحذر وانتباه وإع أو بغير وعي بتوسط زمني بالملق المؤجل المملوء بالرغبة والعزيمة القوية الاختلاف هو استراتيجية ومجازفة، استراتيجية لأنه لا توجد حقيقة متعالية وحضور خارج مجال الكتابة تعد مفردة عمل دريدا على تحويل حرفها(E) والاستعاضة عنه بحرف (A) لغرض تأكيده على أن التغيير يحدث على مستوى الكتابة لا على مستوى الكلام، فهم يفيد المعنيين الاختلاف والإرجاء "ذلك أن الإرجاء والإهمال والتأجيل والتزييل-أي التفريق- تستتبع جميعها الحسبان والمداورة والمهلة والاحتياط(...)"(دريدا، ج، 2015، صفحة 8)

فتصيرت بذلك Différance/Différence، لأن التاريخ لا تغيره الأصوات، بل تغيره الكتابة، يحيل هذا الاختلاف والتمايز إلى إرجاء المعنى وتأجيله تستجمع دلالات في ديناميكية لا تستقر عند دالها.

ثانيا: مساءلة دريدا التفكيكية لمركزية الكلام أو الصوت وخلخلة مفهوم النسق:

بداية، نود أن نستهل هذه الورقة البحثية بواحدة من المركزيات التي عمل دريدا على تفكيكها ونقصد ما تعلق بمركزية الصوت أو الكلام التي برزت بشكل متأصل في الثقافة الأوروبية على سبيل الحصر مفصحة ومقرة بأسقية الصوت على الكتابة، فهذا الأساس الميتافيزيقي الذي شكل ساحة ومعتراكا ضد أي نظرة اتصالية تؤكد وجود علاقة تواسح بين الكلام والكتابة، بل حدث مقت للكتابة ومنح الامتياز والأولوية للكلام الذي بدت إرهاساته الأولى في الفكر اليوناني عند كل من سقراط، أفلاطون وأرسطو، باعتبار أن " (...) حقبة اللوغوس تضع الكتابة في منزلة سفلى وتراها واسطة لوساطة وسقوفا في خارجية المعنى (...)"(دريدا، ج، 2008، صفحة 74).

ما يؤكد أن الكلام يضيف على حضوره سمة جوهرية فيه على عكس الكتابة، لأنه يتدارك ذاته إذا ما أُشكل عليه أمر إساءة الفهم للكلام المقصود، فيصححه فوراً، وينكشف بذلك المعنى المباشر إزاءه، ولا يتوسل أي واسطة أخرى لإيضاحه باعتباره خطاب شكله الوعي في أوج حضوره وانوجاده الحي.

فالرفع من مقام الكلام على حساب الكتابة ظهرت بوادره مع سقراط في تهكمه على الكاتب العمومي في أثينا حيث "كان اللولوغراف (الكاتب العمومي) بالمعنى الحصري للكلمة، يحرر للمدافعين، خطابات لا يتلوها هو نفسه، ولا يسندھا في "شخصه" إذا جاز القول، وهي تفعل فعلها في غيابها، وعليه فإذا يكتب ما لا ينطق هو به، ولن ينطق به، بل لن يفكر به بحق أبداً، فإنما يتموقع مؤلف الخطاب المكتوب في وضعية السفسطائي (...)" (دريدا، ج، 1998، صفحة 19).

فإسناد خطاب مكتوب إلى غير قائله وصفه سقراط بالسفسطة، فعدم الإصغاء للقول كخطاب للعقل ما هو إلا إنشاء لخطابات مغشوشة نقشتها الكتابة، ولهذا وجب دحضها والإعلاء من قيمة الكلام، وبخاصة إذا كانت كتابة بشكل مشين، ففي محاوره فايدرس "Phaidrus" - وهو حوار مصنف ضمن حوارات المرحلة الأخيرة لأفلاطون، حواراً ارتكز على تمجيد للحماسة في الحياة الروحية ونقد لعملية تعلم الكتابة فمحاورات فايدروس تهدف إلى محاوره العقل، وعدم إنسياق الروح لغيره. - ف"يذكرنا الفايدروس أن المواطنين الأشد قوة والأعظم شرفاً وأن الرجال الأكثر تحرراً، يشعرون بالخزي حينما "يكتبون خطابات" ويتركون خلفهم رسائل مرافقة أنهم كانوا يخشون حكم الأجيال اللاحقة (...)" (دريدا، ج، 2015، صفحة 150).

وفقاً لدريدا، فإن وجهة نظر أفلاطون حول الكتابة المقدمة في حوار "فايدرس" قد وجهت إلى حد كبير لهذا التقليد الفلسفي، أفلاطون متحدثاً بصوت سقراط يجادل بأن الخطاب المكتوب يؤدي إلى إنتاج معان، فهو حمال معان، ولا يمكن من الحفاظ على معنى واحد لا يتزعزع، وهنا يظهر بما يسمى "بالبسيكاغوجيا" فهي تضليل كلامي وفن تلاعب بالخطابات، وقيادة النفوس اتهم فيها أفلاطون كلا من الكتّاب والفسطائيين بممارسته.

لقد كان دريدا على وعي تام بالدور الخطير الذي لعبه أفلاطون في تاريخ الفلسفة الغربية، بتفضيله الكلام على الكتابة وإقامته لسلسلة استعارات يستند إليها الخطاب الأفلاطوني " (...)" إن الخطاب هو في حد ذاته استعارة (...). فإن لم يؤدي الخطاب إلى استعارة، فلن يكون هناك أي شخصية للتعبير المجازي عن أشكال الكلام، هذا هو السؤال الأفلاطوني القديم للعلاقات بين خطاب الحقيقة وروايات الخيال (...). (SERGE, M, 2011, p. 47)

خطاب يتكئ بدوره على تناقضات متنوعة ميزت خطاب اللوغوس الغربي، وموقع الاستعارة فيه ينبجس فيما أسماه دريدا بالميتولوجيا البيضاء (الأساطير البيضاء) (Methologie blanche) ف (...) "ميتافيزيقا الأساطير البيضاء التي تجمع وتعكس الثقافة الغربية: الرجل الأبيض يأخذ له الأساطير الخاصة (...) قد خلقت في حد ذاتها المشهد الرائع الذي أنتجها والتي لا تزال مع ذلك نشطة منقوشة بحبر أبيض ورسم غير مرئي ومغطاة في ورق (...)". (DERRIDA, J, 1972, p. 254).

فالميتولوجيا البيضاء في نظر دريدا ما هي إلا ميتولوجيا تميز الغرب عرقيا (العرقية البيضاء)، تحمل وتولد مفردات ميتافيزيقية حتى في أسنى وأرفع مستويات التجريد وقيمتها تبقى مسكونة بدلالاتها المتجسدة حسيًا، حتى التجريد والمثالية القصوى تشكل احتيالا، باعتباره استعارة تضع قناعا فيتحتتم على هؤلاء الميتافيزيقيين الذين يسعون إلى مغادرة عالم الظواهر بتفكيرهم وتأملاتهم (الإقامة على الدوام في المجاز، مجاز يستوعب نقيضه وهو اللهث وراء الحقيقة ومطلقتها التي يؤكد لها منطق اللوغوس فهو (...) إذن إنتاج خطاب حول الحقيقة (...)).

(MARCOS, S, 1998, p. 145)

حقيقة يآزرها منطق الكلام، فسمه المباشرة في حقل الكلام تمنحه قوة خاصة، لأن المتكلم يعرف ما يعني، ويعني ما يقول، ويقول ما يعني بوعي تام، ويعرف ما يقول وهو قادر فضلا عن ذلك على تصويب أخطاء الكلام والتأكيد على ما إذا كان الفهم قد تحقق فعلا، ففي موقف الكلام يكون المستمع قادرا بشكل أفضل على التحقق من معنى ما يقوله المتحدث ومن الممكن مناقشته في سياق كلامه، غير أنه لا يمكن أن يكون ذوبان السياقات أو التبادل الفوري للمعاني ممكنا، فميتافيزيقا الكلام (الصوت) تؤكد المعنى الحالي والحقيقي الذي يظهر في الوعي.

فهذا التمرکز حول الكلام أو الصوت هو أساس التمرکز حول العقل في المركزية الغربية تقوم بحسب دريدا على رؤية إقصائية تراتبية، ورغم تلك اليقظة القائمة فيها غير أنها لم تسلم من مفك التفكير، وليس الغرض من هذه الاستراتيجية هو إحداث قلب التراثية ضمن منطق الثنائيات (كلام/كتابة) وإنما غرضه خلخلة المسكوت عنه في تاريخ اللوغوس الميتافيزيقي حيث "يعتبر دريدا (...) أن النص متوتر بطبعه وينطوي على معضلات ولا يقينيات وأنه لا يوجد "خارج-النص" (Hors texte) لأن كل حركة أو علامة أو إشارة أو واقع أو حقيقة فهي نص (...) النص هو نسيج والنسيج في بنيته متشابك الخيوط المتداخل السلاسل بحيث لا تنكشف حقيقة النص أو الحقائق التي يتكلم عنها النص إلا كنسيج معقد (...) " (شوقي، م، 2015، صفحة 222)

هذا النسيج المحكم الحياكة والمتشابك الخيوط في آن يستوجب على دريدا أن يخضعه لل فك ، فاستحضار ما تم تهميشه -أي الكتابة- والإعلاء من صوت اللوغوس يؤكد -بحسب دريدا- ذلك

الجانب المستتر الذي يسعى لكشفه، وبالتالي فالكتابة ما هي إلا أثر سيكون اسما آخر لها، فهي إذن بنية يسكنها دائما أثرها، كما أنها فعل تستلزم نوعين من الغياب غياب المرسل وغياب المرجع، واستدعاء النص المكتوب الذي يعج ويفيض بالمعاني المملوغة بمدلولاتها وباختلافاتها اللامتناهية تبتعد بها عن سياقها المقصود من ورائها، والنص المكتوب بذلك يكتنفه الغموض وما يحويه من ثغرات وتناقضات، فعملية تقصي هذه الألغاز المحيطة به غرضه إبانة التعقيد الحاصل فيه وإن كان هينا بسيطا، بل الكشف أيضا عن مفارقاته وما أضمر فيه بل العمل على تأجيل المعنى المقصود والمباشر له، وهذا ما أورده دريدا ضمن كتابه: "في علم الكتابة" "De la grammatologie" (...). حيث يشير من مصطلح "علم النحو" إلى "علم" الكتابة" يأتي "gramme" من اليونانية من "gramma- grammatos" وهو نفسه "Grapho" ويعني هذا اللفظ في اللغة اليونانية (الحرف المنقوش، وطبيعة الكتابة، وبالتالي: فهو علم الآثار المكتوبة (...)) (RAMOND, CH, 2001, p. 35). فيستوجب بحسب دريدا تقديم خطاب مكتوب على أنه خطاب حي في ذاته يعج بدلالات لا متناهية ويفيض بمعان مؤجلة يستند إلى إضافاته المتشابهة تكشف ما كان خفيا، فتغيب صاحب النص (أو ما يوصف بموت المؤلف) عن نصه يؤدي إلى انفلات المعنى المقصود والتفسير المباشر له والموجه إليه. (...). الإجراء والاختلاف وعدم حضور الدلالة وإرجائها باستمرار (...). (دريدا، ج، 2008، صفحة 29)

ولهذا فإن الكتابة بحسب دريدا صبغة لإنتاج تأويلات بنمط مغاير تؤكد لعبة الحضور والغياب وابتكار لوحدها، وليست وعاء لشحن وحدة معدة سلفا، بل حركة إرجاء غير منته واختلاف متأصل فيها.

تبرز من موضع مغاير أيضا داخل النص الميتافيزيقي سلطة المفكك باستنطاق واستئناف دريدا لقراءته التفكيكية لنص "دوسوسير"، فعبارة دريدا "لا يوجد شيء خارج النص «il n ya pas de hors texte» كما وردت في النص الأصلي له: "de la grammatologie" تؤكد اختراق التفكيك للهوية المستقرة داخل وحدته المتماسكة، بل الانكباب على إحداث تصدعات داخله، باستبعاد كل ما هو خارج عنه، سواء تعلق الأمر بالوجود الواقعي أو الظروف التي عايشها المؤلف وتجاوز عتبة سيرته وحبسته التاريخية والمرجعية، مرجعية انحصرت ضمن حيزها الذي أحاطته هالة اللوغوس، والحضور الواعي أمام الذات وأمام سلطة الصوت فيه وتسيده في الفكر الميتافيزيقي ذلك أن فردينان دوسوسير قد منح الأسبقية للعلامة اللسانية أو للسانيات بوجه عام باعتبارها خاصية اجتماعية، وعلى هذا الأساس أقام "دوسوسير" تمييزا واضحا بين اللغة واللسان البشري ف"(...) ينبغي أن نميز بينها (أي اللغة) (Langue) وبين اللسان البشري (LANGAGE)، فاللغة جزء

محدد من اللسان، مع أنه جزء جوهري-فاللغة نتاج اجتماعي ملكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما ليساعد أفرادها على ممارسة هذه الملكة، وعلى العموم: اللسان متعدد الجوانب، غير متجانس،- يشتمل على عدة جوانب في آن واحد- كالجانب الفيزيائي (الطبيعي) والجانب الفلسفي (الوظيفي) والجانب السايكولوجي (النفسي)، واللسان ملك للفرد وللمجتمع (...). أما اللغة (...). لها كيان موحد قائم بذاته (...). (دي سوسير، ف، 1985، صفحة 27).

ذلك أن القرن التاسع عشر هو قرن اللسانيات بلا منازع، فالدرس اللساني عند سوسير يمثل البعد الذي يتم فيه إقصاء الجانب الذاتي في مجال اللغة، والنظر إليه كونه يشكل نسقا ونظاما مجردا من العلامات. نظام يستند على تلك العلاقات التي تتشابك بها العلامات لتبلور نسقا أو بنية، وهي شبكة علاقات يشترك فيها كل أعضاء الجماعة اللغوية تؤكد مخزونهم الذهني، والنظر إلى اللغة لا كمجرد أداة مادية تشكلها الأصوات، بل كنسق لغوي تشترك فيه الجماعات اللغوية يتحقق على إثرها التواصل بينهم، ومن أهم ما عول عليه سوسير في دراسته حول الدراسات اللسانية هو منطق الثنائيات والتحليلات التي أقامها عليها، وبخاصة ما تعلق بثنائيات الدال والمدلول إلى جانب ثنائيات أخرى أقامها وشكلت بذلك الطابع الأزواجي للظاهرة اللغوية ما يؤكد أن سوسير "يجهد نفسه مرحليا لتلاقي "زئبقية المصطلحات" (دي سوسير، ف، 1985، صفحة 76). هذه المصطلحات التي ركبها سوسير كثنائيات حصرها في (اللسان، الكلام)، (الدراسة الوصفية التزامنية والدراسة التاريخية التعااقبية (synchronic et diachronic)، (العلاقات الأفقية والعلاقات الرأسية)، غير أن ما يعيننا هنا وتحديدنا هي ثنائية الدال والمدلول، وتلك العلاقة القائمة بينهما ضمن ما أسماه بالعلامة اللغوية التي تشتمل على هذين البعدين، وما تتضمنانه من اعتباطية الدليل اللغوي ذلك أن " (...). الدليل اللغوي لا يجمع بين شيء واسم بل بين متصور ذهني وصورة أكوستكية وليست الصورة الأكوستكية هي الصوت المادي أي ذلك الامر الفيزيائي المحض، بل هي الأثر النفسي لهذا الصوت (...). وللمقابلة بينهما وبين الطرف الآخر من عملية الترابط أي المتصور الذهني، وهو غالبا ما يكون الأبعد في التجريد" (دي سوسير، ف، 1985، صفحة 110) فالدليل اللغوي أو العلامة اللغوية بحسب سوسير توحد بين الصورة السمعية والمتعلقة بالدال (Le signifiant)، والصورة الذهنية التي يؤكد المدلول (Le signifie) غير أن الصورة السمعية أو القيمة الصوتية (الأكوستكية) ليست مرتبطة بجانبها المادي الفيزيولوجي " فالدليل اللغوي إذن كيان نفسي ذو وجهين (...). وهذا العنصران ملتحمان التحاما شديدا ويستدعي وجود أحدهما وجود الآخر" (دي سوسير، ف، 1985، صفحة 111).

فهما بذلك وجهان لورقة واحدة، أو هما وجهها العملة الواحدة يتعذر فصلهما باعتبارهما كيان كلي مترابط تؤكد علاقة التلازم والضرورة، وأن (...) الرابط الذي يجمع بين الدال والمدلول رابط اعتباطي أو بعبارة أخرى وبما أننا نعني بكلمة دليل المجموع الناتج عن الجمع بين الدال والمدلول يمكننا أن نقول بصورة أبسط: إن الدليل اللغوي اعتباطي" (دي سوسير، ف، 1985، الصفحات 111-112). فهذه الاعتباطية في الدليل اللغوي ليس لها ما يبررها باستناد دال ما تحديدا على مدلوله دون الأخذ بدوال أخرى تفي بالغرض المطلوب، ولكنه محل اتفاق وتواضع بين الجماعة اللغوية للأخذ بدال معين يتوافق مع مدلوله تحديدا وربما يتماشى والانتماء للسان الجمعي، غير أن ما يؤخذ على سوسير ضمن الاعتراض التفكيكي عند دريدا هو أن الدال والمدلول في حالة تلاعب حر يضع حدا لتناهي الدلالة، ومنح مآذونية للاحتمال بصورة أكبر ما يتيح تعدد القراءات في النص الواحد، فيعتذر الوصول إلى دلالة مقصودة ومحصورة وما يؤدي إلى تراقص للدوال في لعب غير متناه لها وحركية دؤوبة وتحول متتابع له في منحنى لا استقرار له.

النص صانع لمعان لا حصر لها ف" ما من مدلول يفلت من لعبة الإيحاءات الدالة التي تقوم بتشكيل اللغة (...) إن قيام الكتابة هو قيام اللعب وأن اللعب يعود إلى نفسه، ماحيا الحد الذي كان يعتقد بإمكان تنظيم حركة العلامات انطلاقا منه، وجارا معه جميع المدلولات المضمنة مطوحا بجميع الأماكن الحصينة، جميع ملاجئ "خارج اللعب" التي كانت تشرف على حقل اللغة او تحرسه، وهذا مما يعني بكامل الدقة، تدمير مفهوم "العلامة" ومنطقها كله" (دريدا، ج، 2000، صفحة 104).

فتفجير النسق والبنية المتلاحمة من داخل ذاتها وضمن شبكتها العلائقية يؤدي إلى وجود تماسف وانشطار للرابط الجامع بين الدال ومدلوله، يتحقق على إثره اختلاف المعنى المقصود، اختلاف لا تنحصر فيه الإحالة المباشرة لأن فعل إرجاء المعنى لا يثبت ولا يستقر عند معنى بعينه باعتباره أصلا وإنما يظهر الأصل في الاختلاف الذي يبقى أثره كاختلاف لدى الآخر.

كما تتضح أيضا مساءلة دريدا التفكيكية لـ دي سوسير من خلال احتقاره للكتابة وإتاحة قيمتها والإعلاء من قيمة اللغة ودورها وإن كان سوسير أقر بأهمية الكتابة بداية بعدها تألب عليها وهذا ما يؤكد قوله: (...) "إن معطيات دراستنا هي اللغات، ويتحتم على الألسني أن يعرف منها أكبر عدد ممكن حتى يستخلص من معانيها ومن المقارنة بينها ما هو كلي مشترك بينها، غير أننا -وبوجه عام- لا نعرف تلك اللغات إلا عن طريق الكتابة (...) وإلى الوثائق المكتوبة، أما إذا تعلق الأمر بلسان يتكلمه الناس في مكان بعيد عنا بعض البعد فإن اللجوء إلى الشواهد المكتوبة يصبح أكثر ضرورة

وإلحاحا، (...) أن يكون ذلك ضروريا بالنسبة إلى الألسن التي انقرضت" (دي سوسير، ف، 1985، صفحة 48).

فاتباع الموروث الألسني الذي آل إلى الزوال لا يتم إلا عن طريق ما خلفته الآثار المكتوبة عنها، ولكنه رغم هذا الاعتراف بفائدة الكتابة إلا أنها تحمل بين طياتها مخاطرا وغيوبا. لأن الكلمة المكتوبة بحسبه ما هي إلا (...) صورة الكلمة المنطوقة تمتزج وغيابها امتزجا عميقا منتبي بها إلى اغتصاب الدور الأساسي (...) فللغة إذن صورة شفوية مستقلة عن الكتابة وأكثر منها ثباتا بكثير (...) الإنسان يتعلم الكلام قبل أن يتعلم الكتابة (...) (دي سوسير، ف، 1985، الصفحات 51-49).

فالكاتبة تحجب عن اللغة -بحسب سوسير- وجهها وطلّتها الحقيقية، فما هي إلا قناع ماكر تبدل حالتها وتخفي هيتها، فالتلفظ بالكلمة نطقا مختلف عنه رسما بالكتابة، وهذا ما يؤكد امتياز الكلمة المنطوقة على حساب الكتابة، الأمر الذي أعاب فيه دريدا دوسوسير أنه بقي حبيس ميتافيزيقا الكلام وإنزاله للكتابة منزلة دنيا ودينئة (...) هذه التمركزية اللوغوسوية التي هي تمركز صوتي أيضا (...) (دريدا، ج، 2000، صفحة 111).

فمركزية الحضور هذه ستمنح بعدا آخر عند دريدا لتقصي تلك المعاني المغيبة في النص النسقي لسوسير، وأي نص آخر يدعي لنفسه ذلك الحضور القوي للوعي والذات المتكلمة، وتتبع انزلاقاتها وقوالها الجامدة التي حملت معها معان مستقرة من خلال فك ذلك النسيج الذي أحكمت خيوطه وحيك براءة (...) الأمر يتعلق بالتحدي في الكتابة من خلال حدث الكتابة الذي يصل إلى هنا من بعيد ومن بعيد جدا لإطلاق التحدي (...) لتحدي النسيج القديم جدا والمعرفة التي يحملها مع نفسه (...) النسيج الغريب لخيط الحرير من دون دودة القز، خيط لا يوضع أبدا كشيء خارج الحيوان (...) (CIXOUS-DERRIDA, 2007, pp. 318-319).

كذلك الأمر بالنسبة للكتابة وللنص بوجه عام، فلا شيء خارجه كما أكد على ذلك دريدا، فتبرز بذلك سلطة القارئ عوض سيادة المؤلف لأن هذه السيادة يوضع لها حد لمجرد وضع عمله بين يدي القارئ، وهذا الأخير جدير بإظهار واستنطاق ما سكت عنه فيه لأن (...) النص المنسوج فقط مع الاختلافات وآثار الآثار (...) (GOLDSCHIMIT, M, 2014, p. 12).

لغرض ذويب الدلالة المركزية داخل النص بوصفها أصل وحضور لكل / في كل شيء، وبوصفها آثار تؤكد على فكرة الحاضر في ماضيه والماضي ضمن حاضره، ولإقحام المناطق اللا مفكر فيها وسحبها من ضواحيها، وكيفية التفكير في نص ما مكتوب (...) فتكون بذلك كل كتابة مثيرة شكوك لا تنتهي، محفزة على النظر في الاتجاهات كافة (...) وراء صمت الكتابة تكمن أصوات وتحركات،

تتشكل ظلال أشخاص كائنات، نحن الذين يعيننا أن "نبحث عن الزمن المفقود" شعورا منا أن في حوزتنا ما هو مفقود، الشفاهة تترأى هازئة من الكتابة، وربما بضحك مجلجل (...) والكتابة ربما ترد الصاع صاعين، وبنوع من الشماتة (...) من خلال كلمة تضاف إلى متن أو هامش، أو تحل في جملة لها موقعها في القرطاس، لتكون الحضور وتلك الغياب (...) (دريدا، ج، 2015، الصفحات 9-10).

فهذه المراوغة والمشاكسة التي ارتأها دريدا غرضه منها تفكيك ميتافيزيقا الحضور التي أحكمت قبضتها بيد من حديد على تاريخ الفكر الفلسفي بل تعدته إلى مجال اللسانيات على حد سواء، وكيفية التفكير والتعامل مع أي نص كان.

خاتمة:

مما سبق يتضح أنه من المعارضين الذين ناهضوا رؤية دريدا الفكرية خاصة ما تعلق باستراتيجيته التفكيكية راجع إلى أفكاره العصبية على الفهم بشكل مباشر، وهذا ما التمس فعلا في أسلوب كتاباته، بل في أحيان كثيرة "ليس من الصعب فهم السبب الذي اتهمت فيه فلسفة دريدا عموما (وهي فلسفة شاركها فيها آخرون لاحقا) بالريبة (Skepticism) واعتبارها نسخة جديدة من النزوع العدمي (Nihilistic) ومنحى لتقويض نواة المعنى. أي معنى. بالطريقة التي يمكن للفهم البشري تناوله." (فليح، ن، 2018، الصفحات 40-41) ما يؤكد أن غرضه من هذه الاستراتيجية في التعامل مع النصوص الميتافيزيقية منها وما تعلق بالنقد الأدبي من جهة أخرى ما هو إلا نوع من الإحالة إلى العدم لا تستند إلى أساس يدعمها ولا تستقر على حال يراعى من خلاله الفهم النهائي، بل يسعى إلى زعزعة أركانها من الداخل، تفكيك يحيل بدوره إلى تفكيكات في فعل ديناميكي لا يعرف استقرارا ولا ثباتا عمّا كان مألوفاً فيها ضمن نسج نصي كان يُعتقد أنه متماسك الحياكة، فيه نوع من المراوغة والمداعبة، ولكنه من جهة مغايرة فإن دريدا نفسه بالمقابل أكد على أنها طريقة قراءة توكيدية تحوي تمكُّنا تحويلا كامنا فيها، لما يكتنه إستراتيجية التفكيك بحسب دريدا التي لها القدرة على استنطاق النصوص التي طال صمتها وكنتم صوتها، وبقيت بذلك حبيسة المعنى القار فيها ضمن انسداد محكم للنسق يستوجب إعادة مراجعته وإثارتته من جديد، كما أن التفكيك ليس غرضه إعادة للممة شمل المفكك والمجزأ، بل يبقى ممارسة في التعامل مع النصوص وإن كانت عُنيّت (...) بداية بالفلسفة والأدب بصورة خاصة، إلا أنه انخرط في طيف من المشاريع النظرية في مناطق متنوعة من الإنسانيات والعلوم الاجتماعية-فضلا عن الفلسفة والأدب-كالقانون، التحليل النفسي، العمارة، الأنثروبولوجيا، اللاهوت، الدراسات النسوية (...) (فليح، ن، 2018، صفحة 42) فما يلاحظ على رؤيته التفكيكية، وضمن مسيرة حياة متشعبة ومشتتة في آن جعلت هذه

الرؤية لم تبرح إطار ظروفه التي عايشها، ظروف اليهودي المضطهد والمنبوذ في موطنه فرنسا تحديدا، إضافة إلى أن تلك الأفكار التي تمثلها واستقاها من مشارب متعددة، جعلته يتألب عليها ليس تجاوزا فحسب وإنما تفكيكا لها من داخل متونها، ومن هنا يتراءى لنا خطابه التفكيكي القائم المتكى على الاختلاف كإمكانية من الإمكانيات التي تقدم قراءات مغايرة للنص ومتميزة بتمايز الرؤى المختلفة والإقرار والاعتراف بأحقية الآخر في الاختلاف كما أن مساءلته التفكيكية لميتافيزيقا الحضور في التراث الغربي لم تخرج عن إطار ميتافيزيقا الوعي والذاتية وميتافيزيقا الصوت أو الكلام، ومنطقها المستند إلى الثنائيات التي يحضر فيها طرف ويغيب ومهمش آخر، الأمر الذي جعله يعيد قراءة تفكيكية يستدعي فيها ما كان مغيبا ومهمشا ليس الغرض من ذلك إعادة صياغة منطوق ثنائي جديد، وليس غرضه إعادة قلب للتراتبية بحيث يتصير الهامش فيها مركزا، وإنما يهدف إلى خلخلة وتشتيت أي ثنائية قام عليها التفكير الغربي عبر تاريخه الطويل بالتحيز لطرف على حساب طرف آخر تم تغييره بشكل تسلطي.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر والمراجع باللسان العربي:

- دريدا جاك، (1998)، صيدلية أفلاطون، (دط)، تونس: دار الجنوب للنشر.
- جاك دريدا، (2000)، الكتابة والاختلاف، (الطبعة الثانية)، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر والتوزيع.
- جاك دريدا، (2008)، في علم الكتابة، (الطبعة 2)، القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- جاك دريدا، (2013)، في الروح هايدغر والسؤال، (الطبعة الأولى)، بيروت: دار الفارابي.
- جاك دريدا، (2015) أبراج بابل، (الطبعة الأولى)، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- جاك دريدا: (2015)، فصول منتزعة، (دط)، بيروت، بغداد: منشورات الجمل، بيروت، بغداد.
- دي سوسير فردينان، (1985)، علم اللغة العام، (دط)، بغداد: سلسلة كتب شهرية تصدر عن: دار آفاق عربية.
- دي سوسير فردينان، (1985)، دروس في الألسنية العامة، (دط)، طرابلس، تونس: الدار العربية للكتاب.
- شوقي الزين محمد، (1994)، تأويلات وتفكيكات، (الطبعة الأولى)، بيروت، الرباط، الجزائر، منشورات ضفاف، منشورات دار الأمان، منشورات الاختلاف، 222.
- أرفيه ميشال، (2009)، البحث عن فردينان دو سوسير، (الطبعة الأولى)، بيروت: الكتاب الجديد المتحدة.
- فليخ نصير، (2018)، ميراث الغائب، (الطبعة الأولى)، دمشق: دار نينوى للدراسات النقدية.

قائمة المصادر والمراجع باللسان الأجنبي:

- BLUM Claude , (2007), LE NOUVEAU LITRE, Paris : EDITIONS Garnier.
- DERRIDA Jacques, (1972), marges, de la philosophie, PARIS : Les éditions de minuit.
- Cixous, (2007), L'événement comme écriture, PARIS : Editions compagne première.
- Goldschimit Marc, (2014), jacques Derrida (une introduction), PARIS : Pocket.
- Sixar Marcos, (1998), jacques derrida (rhétorique et philosophie) PARIS harmattan .